بقلم : محمود البدوى

كنا نتجه الى الاسكندرية متخذين الطريق الزراعى فى جو حار خانق ووسط قوافل من السيارات لا حصر لها فى سيارة قديمة من السيارات التى نستعمل عادة فى نقل الدخان الى دكاكين الريف .. ثم حولها صاحبها فى فصل الصيف الى عربة ركاب ونقلها من منطقة بنى سويف الى القاهرة لتعمل على خط المصايف بين القاهرة والاسكندرية .. مستغلا كل الظروف فقد كان أجر الراكب الواحد يرتفع الى ١٥٠ قرشا فى المشوار .. ثم ينخفض الى ثمانين قرشا تبعا لتقلبات الأحوال .

وكنا فى أول أغسطس والشمس تلهب وجه تمثال رمسيس القائم فى قلب الميدان الذى كان ينظر بغيظ وعجب الى حركة المرور المتخلفة التى تجرى تحت أقدامه ..

ولا أدرى كيف التقطنى المنادى وأنا أرتد عن السكة الحديدية .. بعد أن ألفيت كل القطارات محجوزة لمدة يومين والزحام على أشده .. وأدخلنى بفعل ساحر فى جوف هذه العربة الكئيبة .. كانت مقاعدها بالية ويعلوها التراب وطلاؤها الحاجى قد بهت لونه وستائرها ممزقة وحالتها فى الجملة تدعو الى الرثاء .. وركبتها وفى نفس اشتياق لأن أمر بتجربة جديدة فلم تكن هى أنسب العربات الواقفة على صعيد واحد فى الناحية القبلية من الميدان .

ولكنى كنت أقف هناك ضائعا تحت

الباكية ولا أدرى كيف أمضى أو أتقدم خطوة ·· عندما امتلأ أمامى « تاكسى » وتحرك سريعا ·· ثم تبعته سيارة من نفس الطراز ·

وفى هذه اللحظة انتشلنى من حيرتى صوت المنادى ·· وهو يقول :

ـ تفضل ·· ياسيد ·· هذه عربة مريحة ورخيصة وأجر النفر ١٣٠ قرشا فقط ·

وكنت قد سمعت منذ لحظات قليلة أثناء وقوفى سعر البورصة ارتفع الى ١٦٠ قرشا ·

فركبت فى الزاوية اليسرى من الصف الثانى ملاصقا للنافذة ولم أكن احمل حقيبة ولا ورقة ولا أى شىء على الاطلاق ·

وكانت الكراسى الاربعة الامامية التى فى الصف الأول محجوزة كلها كما عرفنى السائق ·· وبقى الكرسيان اللذان بجانبى اذ أن العربة معدة لسبعة ركاب وجاء الراكبان سريعا فقدكانت العربات الموجودة فى المكان لا تكفى سيل الركاب المتدفق ·

وفى حوالى الساعة الخامسة مساء قدمت الأسرة التى حجزت المقاعد الامامية وكان معهم عفش كثير ·

وأدخلوا العفش فى حقيبة السيارة الخلفية ثم **ركبوا أمامى ···**

وركب بجوار السائق مساعد له وكان شابا .. جم النشاط يتحرك فى سرعة اللولب ·· فلما أشرفنا على مشارف شبرا واتخذنا طريق المزارع استرخى وتجمع على نفسه كالقوقعة·· ولم يعد يعبأ بشىء مما يجرى على الطريق ·

وكانت الاسرة الجالسة أمامى مكونة من شاب نحيل أسمر لم يتجاوز الثلاثين وسيدتين احداهما شابة أنيقة فى الخامسة والعشرين من عمرها والأخرى عجوز بلغت الستين ·· ثم غلام فى العاشرة ·

وكانت السيدة الشابة تجلس امامى مباشرة وبجوارها الشاب ثم غيروا أماكنهم وأبعدوا الغلام عن باب السيارة خشية أن ينفتح الباب فجأة ويسقط الغلام ···

وكانت السيارة تسير بسرعة متوسطة وكل السيارات التى تمر فى الطريق تجتازها وتخلفها وراءها ··

وأدركنا بعد مسيرة ساعة اننا لن نصل الاسكندرية قبل منتصف الليل فظهر الاستياء على وجوه الركاب ·· وأخذوا يحثون السائق على الاسراع ··

ولكن الراكب الذى بجوارى كان هادئا ولم ينبس ببنت شفة ·· وبدا لى أنه اعتاد على الركوب فى مثـــل هذه العربات ··

وقال باسما فى همس وهو يلتفت الى لما وجدنى صامتا مثله ولا أشارك الركاب فى الحملة على السائق ··

ـ ان الاسكندرية ستظل فى مكانها سواء وصلنا فى أول الليل أو آخره·· ولن يبتلعها البحر ·

ـ هذا حق ولكن مثل هذه السرعة لا تناسب هـذا العصر ·· ولا ترضى الكثيرين اننا فى عصر الصواريخ ··

ـ وماذا يفعل الســـائق المسكين وما ذنبه ؟ المحرك قديم وهذه هى أقصى سرعة للســـيارة ·· والامر خارج عن ارادته ·· ولو كان فى وسعه أن يطير لطار ··

ولكن هذا الكلام لم يقنع الشـــاب المرافق للأسرة وتبادل مع السائق كلمات جارحة حتى ان هذا أبدى استعداده عن طيب خاطر بأن يرد لهم العربون الذى تنـــاوله منهم مقدمـــا ·· وينزلهم فى مدينة بنها دون أجر على الاطلاق ·

وبمثل هذه الحالة من التوتر سارت العربة فى وهج الشمس فى طريق ناعم كالحرير ولكنه مشـــحون الى أقصـــاه بالسيارات الذاهبة والراجعة ·

وكنت مسترخيا فى الجانب الأيسر مغلقا عينى نصف اغماضـــة لا أعبأ بتحركات السيارة أسرعت أو أبطأت فى الطريق ولا أنصـت الى حديث الركاب الذين جلسوا معى فى هذا الحيز الضيق·

وفتحت عينى الى الحقول المزهرة على الجـــانبين ··· والى الذهب المراق على الارض فى كل شبر نطويه ··

كانت حقول البرسيم يانعة على امتداد البصر حوالينـــا ·· والقطن قد تفتح نواره ·· وعيدان الذرة قـد تطاولت سوقها وأطلت قناديلها ··

وعلى مبعدة فرسخ واحد تبدو القرى الوادعة ·· وقد خيم عليها النخيل ·· وحلقت فوقها أسراب من الطير تكسر أجنحتها وهى تتماوج وتتمايل فى سماء ساكنة ··

وقرص الشمس مازال يلتهب وهناك شىء أشبه بالدخان بدأ يتجمع ·· ثم يتبدد صعدا ··

وظلت الصـــورة رائعة وأخاذة فى هذا المحيط الريفى الجميل ··

وكان الفلاحون متناثرين هنا وهناك فى قلب الحقول وفى أطرافها يعزقون الارض أو يســقون الزرع أو يشــقون القنوات الصغيرة·· وسواعدهم المفتولة تبدو عارية تحت لفح الشمس ·

ولقد ظل هذا الفـــلاح على الدهور يحس وهو يعمل فى الارض بساعده انه سيدها ومالكها ·· ظـل كذلك دوما يشعر بنفسه وبكيانه وبانه سيد هذه الأرض رغم ماحاق به من بؤس وعذاب فى عصور التخلف وعهد الاستعمار ·· ظل كذلك صامدا وعاش حتى اســترد حريته وأصـبح مالك الأرض الحقيقى وسيدها ··

وكانت هذه السوانح وامثالها تطوف في ذهني وانا انظر الى الحقول وأدخل في تيه من الجمال في كل لحظة حتى غفلت عمن كان معي في السيارة ..

ثم تنبهت على حس السيدة التي امامي وكانت تود ان تزيح ستر النافذة .. المزقة بعد ان خف وهج الشمس وتسالني في صوت ناعم مبحوح ان كان ذلك يضايقني .. فاجبتها في همس بان تفعل ما فيه راحتها تركتها وانا في شبه غفلة تزيح الستارة بيدها الرخصة ..

وقد جعلتني هذه الحركة اتجه ببصري الى داخل العربة .. واتفرس في وجوه الركاب .

كان الراكب الذي بجواري سمينا بادي الطيبة له عينان وديعتان وبشرة سمراء وترتدي بدلة رمادية واسعة .. وكان خفيض الصوت قليل الكلام .

اما الشاب الجالس بجواره مما يلي النافذة من نفس الصف فقد كان ثرثارا عصبيا ينفض رماد سجارته دوما بيد مرتعشة .. وكان في رأسه عينان

قلقتان بادتي التبرم .. وله جبين مقطب وسحنه عابسة كانه يحمل هم الدنيا على كتفيه .

وكان يحمل في يده حقيبة اوراق صغيرة ظل يفتحها ثم يطويها .. كانه ذاهب للمرافعة في قضية لم يستعد لها .

وكان يجلس امامه شاب من طرازه وسنه وبدا لي انه عائل هذه الاسرة الجالسة امامي كان نحيلا قاسي النظرة طويل الوجه يرتدي بدلة داكنة على قميص مفتوح .. ويشاور بيديه وهو يتحدث .. وكان غليظ الطبع ظل يفتح النافذة ويغلقها تبعا لهواه دون ان يسأل باقي الركاب عن رأيهم.. وجلس ملاصقا له الغلام وكان كثير الشقاوة والحركة ولكنه مرح وضحاك .

كانت السيدة العجوز تضمه الى صدرها ولم أكن أستطيع ان اعرف اهي ام للشاب أم للسيدة الشابة الجالسة امامي أم هي والدتهما معا ...

فلم يكن يعنيني الامر في كثير ولا كان من طبعي الفضول ..

وكانت الشمس لا تزال تلتمع وكل شيء اخضر حوالي .. ودخلنا في تيه من شجر الصفصاف ..

وبدأ الجو يتلطف واحسست بشعر السيدةالتي أمامي يصافح جبيني وتهتز سوالفه مع الريح .

وكان القميص الاسود الذي اختارته لتسافر به والذي يلف صدرها يخفي عن عيني كل مفاتنها ولكنه يبرز تحت

نظراتى العنق العارى وبشرة فى لون الحليب الذى علاه الزبد ٠

وشاهدته ـ وهى تستدير لتحادث جارتها شامة صغيرة سوداء ـ على خدها الايمن زادت الخد الأبيض فتنة٠٠ وجعلت خط الانف الدقيق يتألق ٠

وكان جرس صـــوتها منغوما ٠٠ وشفتاها مضمومتان وفى لون الكريز ٠٠

وكان شعرها الاسود ساكنا ثم اخذ يتموج لما داعبه هواء الغروب ٠

وتحت تاثير خاطر الح عـــلى بعنف أخذت أبحث بعينى فى أصابعها عن خاتم الزواج أو الخطوبة ولكن ضاعت نظراتى فى تيه من الحـــلى فارتددت خائبا ولم أتأكد من شىء ٠

وكنت أعرف ان هـــذه الرحلة على قصرها ستحرك مشـــاعرى وتزيل تبلد روحى ٠

ووجدت نفسى فى حالة من الانشراح والتفتح ٠

وأدركت أننا جميعا ظلمنا السائق٠٠ ولم نسمعه وهويشقى فى سبيل راحتنا وبلوغنا المدينة التى نقصدها فى امان كلمة طيبة واحدة وان استياءنا من بطئه حماقة ٠٠

اننا ســـنبلغ الغـاية مهما طال السفر ٠٠٠

وكان الســـائق مقبلا بوجهه عـلى الطريق وقد استغرق كل حواسه لان الليل دخل وأضيئت المصابيح ٠

وكنت افتتن وانا أرى الزرقة الصافية فى السماء ٠٠ وشـــعر الحسناء التى امامى يكون هالة لوجه بدا فى الليل وفى الضوء الشاحب كالقمر ٠

واوغلنا فى الليل واشتد الظلام ٠٠ ثم لاحت انوار طنطا من بعيد ٠

ومال بنا السائق بعد قليل الى المقهى الصـــغير المعد كاســـتراحة ٠٠ عـلى الطريق ٠٠ ولم ندخل المدينة ٠٠

وخرجنا جميعا من السيارة لنستريح فى المقهى ٠

وجلست وحيدا أشرب فنجـانا من القهوة ٠

وكانت الاسرة التى ترافقنى فى السفر تجلس فى جانب من المكان ٠٠

ورأيت السيدة الحسناء فى مواجهتى هناك ٠٠ وكانت ترمقنى من بعيـــد وكأنها تسألنى :

ـ لماذا ابيض شعرك قبل الأوان ؟ ٠٠٠ ولماذا تجلس بعيدا ٠٠٠ ؟

والواقع أننى كنت أقرب من كل شىء اليها ٠٠ وكنت قد أدركت تماما أن الســـبب الاول الذى جعلنى أستطيب الرحلة ورجات العربة هو وجودها ٠٠ وان أنفاسها المعطرة هى التى حولت الجو كله الى أريج من العنبر ٠٠

***

وظللت ألاحظهم بعينى وغاب عنهم الشـــاب ثم رجع فنهضوا جميعـــا ٠٠ وانخلع قلبى وأنا أراهم ينقلون حقائبهم الى سيارة سوداء من طراز شيفروليه ٠٠ كانت واقفة فى جانب من الطريق ٠

وعـــدت الى العربة وحـــدى ومعى الرجل السمين الطيب وأصبحنا الراكبين

.. الوحيدين فقد طار الشاب الآخر أيضا وترك السيارة وانطلقنا متمهلين على الطريق فى الليل الاسود .

***

وكان الهواء قد بدأ يهب ويطيب ولكن الليل قد ازداد سوادا ووحشة .

وكانت نجوم صغيرة تتدلى من فوق شجرات النخيل العالية هناك والمنازل القائمة فى القرى الموحشة التى كنا نمر بها .. ولم يكن شىء يمكن أن يذيب الوحدة والصمت اللذين كانا يلفانى وأنا أنظر من خلال النافذة الصغيرة الى الارض السوداء التى تطوى تحتى والى السماء الصافية فوقى ..

وكان خط السماء الازرق قد التوى هناك فى الافق الغربى وبدأت الجهامة المطبقة ..

وقد نسيت السائق ومساعده كما نسيت جارى فى العربة ..

وكانت أسلاك البرق والتليفون القائمة بجانبى على الطريق قد غابت فى الظلمة .

وبدا لى أن السيارة أسرعت بعض الشىء فى طريق ناعم كالحرير ويقوم على جانبيه شجر الصفصاف .

ثم سمعت صوت القطار السريع يصفر على الشريط الحديدى ويطوى الارض طيا .

وخيم السكون .. واشتد الظلام حتى أن العين لم تكن تلتقط أى اشارة للحياة على طول الطريق .

وكان حفيف الريح الناعم قد أنعشنى .

وكانت حواس السائق متيقظة على الطريق ..

وكنت قد رفعت الى مخيلتى صور رفاقى السابقين فى السفر صورة السيدة التى كانت تعطر المكان أمامى وأصبح مقعدها الآن خاليا .

وكنت أسترخى فى الليل .. وأنوار السيارات التى تأتى فى الاتجاه المضاد تغشى البصر ثم تتركنا فى ظلمة رهيبة.

وظللنا على هذا المنوال نطوى القرى والمزارع حتى خلفنا مدينة دمنهور .. وراءنا بمراحل وبدا الليل أشد سوادا ورهبة كانت السماء ضريرة النجم حالكة الظلمة حتى اختفت عن أعيننا كل القرى والكفور ..

وكانت أسلاك البرق السوداء فوقنا صامتة ثم خذت تئن وتتوجع عندما سفت عليها الريح .

***

وعلى ضوء العربةالكشاف لمحنا شيئا أسود منحرفا عن الجانب الايمن من الطريق .. ولما اقتربنا وسلطنا عليه الضوء .. وضح كل شىء وأحسست برجفة سقط لها قلبى بين ضلوعى .. فقد وجدت رفاقى فى السفر الذين كانوا معنا منذ ساعة .. وكانتالسيدة الشابة تحتضن رأس الشاب .. وكان هذا قد أصيب فى رأسه وصدره اصابة بالغة وغاب عن وعيه .

والعجوز تمسح على رأسه بالماء وتفرك يديه .

وكانت العربة التى يركبونها مهشمة ومات سائقها .. والعربة الكبيرة التى

ضربتهـا فرت بعـد الحـادث فى جنح الظلام ·· دون أن يلتقط رقمها أحد ·

وكانت اصابة الغـلام والسـيدتين خفيفة ·· أما الشاب فقد كانت اصابته بالغة ومات السائق فى الحال ·

وكان الشاب جالسا بجوار السائق فى مقعد القيـادة وجاءتها الضربة من جنب سريعة وقاتلة ·· وفـرت العربة الاخرى ··

وكان الحـادث مروعا فقطعوا الليل بصراخهم ··· ثم صمتوا ومرت عـربة فرات حالهم ونقلت الخبر الى نقطـة المرور التى طلبت عربة الاسعاف فى الحال والبوليس للتحقيق ·

***

وجاءت عربة الاسعاف بعد ساعة ·· وحملوا المصاب على المحفة ·

ووجـدت من اللياقة ان أركب مع السيدتين والغـلام عربة الاسـعاف ولا أتركهم وحدهم فى هذا الليل وجلست بجانب السـيدة الشـابة على الدكة الخشـبية والعـربة تمضى فى الطريق وجرسها يقرع اذن الليل ·

وكانت السيدة منكسة رأسها ملتاعة وفى عينيها يتحير الدمع وعلى خدهاجرح قد غسـل وطهر بمحلول أحمـر ·· فزادها فتنة ·

وكانت تنقل عينيها بين الرجل المصاب وبينى ·· وكنت مطرقا واجمـا ·· استمع الى حفيف الريح ·· وأفكر فى ذلك الشىء السرمدى الذى يحركنا ولا نراه ويرسم لنا خط الحياة ·· وفكرت فى القدر ·· وفكرت فى الموت والحياة ·· وسمعت صوتا هاتفا خيل الى أنه صـوت الشـيخ رفعت ·· وكان يرتل القرآن بصوت حزين مؤثر بالغ حـد الاعجاز فأغمضت عينى تماما ورحت فى دوامة من الأسى ··

وتحرك المصـاب حركة يائسـة ·· فمدت السيدة اليه يدها وهنا لمحت خاتم الزواج فى أصبعها لاول مرة ·· فأطرقت الى أرض السيارة ··

وكانت السيدة الاخرى العجوز صامتة ووجهها جامدا والغلام نائما ·· ورجال الاسعاف قد شغلوا عنـا بالحديث فى شئونهم الخاصة ·

ووصلنا الى الاسكندرية وكانت متلألئة بالانوار لم تكن المدينـة الجميـلة تحس بما جرى فى الليل وهى مثل الحيـاة أبدا تسير ولا تعبأ بما يجرى فيها أو يتخلف عنها ··

ودارت السيارة وصعدت التل الى المستشفى الاميرى ..

وبعدم اكتراث وبروح خالية من كل عاطفة انسانية تلقى الطبيب المصاب .

***

وفى ردهة المستشفى رأتنى السيدة الشابة أروح وأجىء صامتا أخرس .. ورأيتها واقفة بكامل ملابسها كانت طويلة جدا ومحلولة الشعر .. وقد روعها الحادث وهز أعصابها ولكنها كلما واجهتنى ووجدتنى واقفا على باب المصاب .. كانت تود أن تقول لى :

ـ تفضل واسترح كفاك تعبا ..

ولكن لسانها كان يخونها .. وكنت أعرف أن زوجها سيموت بعد ساعة .. ولا أحب أن أسمع صراخها .. فأغمضت عينى وجلست فى الردهة وكانت تسبح فى ذلك الضوء الباهت والسكون يخيم على المستشفى وأحسست بريح الموت فتسللت الى الخارج ..

***

واتجهت الى البحر .. وكان قلبى يهدر مثل البحر تماما وكنت أعرف أن الموج كفيل بأن يغسل أحزانها ولكن متى يحدث هذا ومتى أرجع اليها .. واقرع بابها فى أمسية من أماسى الخميس .